الملوح (*)

للقصصي الروسي فسفولد ميخائيلوفيتش كارشين

بقلم الأديب السيد فخري شهاب السعيدي

كان « سيمن إيفانوف » حارساً على خط من خطوط السكك الحديدية ؛ وكانت المسافة بين مسكنه وبين أقرب المحطات إليه — قرابة سبعة أميال ؛ ولم يكن حول مسكنه ذاك سوى دور زملائه الحراس الآخرين ، وسوى مدخنة سوداء سامقة في الفضاء لطاحونة كبيرة شيدت قبل عام على بعد ثلاثة أميال منه

كان « سيمن إيفانوف » هذا مريضاً مقعداً وكانت له سابقة الاشتغال في خدمة ضابط في الجيش لازمه في كل الحملات التي اشترك فيها ، ونالته من ذلك ضروب الأذى — فانه كثيراً ما جاع ، وإنه كثيراً ما تعرض للهلاك ، وإنه كثيراً ما قطع عشرات الأميال سعياً على قدميه في زمهرير الشتاء القارس ! ولكن الله تعالى قد أنجاه من كل هذا ..

وكانت الفرقة التي كان فيها سيده في مقدمة الصفوف المحاربة التي كانت تكافح الأتراك مدى أسبوع كامل لم تفتر خلاله الحرب ، أو ينقطع إطلاق الرصاص . وكان — هو — يحمل جرايات سيده من شاي أو طعام إلى مقره في خنادق القتال مجتازاً بها مسافة طويلة في مساحة الحرب التي يصم الأذن فيها أزيز الرصاص فكان ذلك يروعه وربما أبكاه ! ولكنه ما كان يتوقف عن المضيّ حاملا إلى سيّده ما جاء له به من مطبخ الجيش . وكان ذلك منه مدعاة إلى ابتهاج الضباط فقد كان الشاي الساخن في متناولهم متى اشتهوه !

عاد « سيمن » من الحملة سالماً لولا أن كان أصابه مرض مؤلم في يديه ورجليه ومنذ ذلك الحين لازمته التعاسة ، فقد وجد عند أوبته أن أباه الشيخ قد توفى ، وأن ابنه الصغير قد لحق بجده ، وأنه لم يبق غيره وغير زوجه في الدار ... ذلك إلى أنه لم يكن يكتب له التوفيق في عمل ما ، وكيف — ترى — يكون التوفيق وهذه أطرافه قد شلّها الألم المبرّح فهي لا تفيده في الحرث ؟

ولم يصبر « سيمن » على الحياة في قريته كذلك : بائساً ، مقعداً فقيراً ؛ بل ذهب هو وزوجه يبحثان عن « السعادة » في أماكن

(*) الملوح : كلمة استعملناها لمن يعين لارشاد سائق القطار بالتلويح له بعلمين صغيرين مشيراً عليه بتخفيف السرعة أو الانطلاق حسب مقتضى الحال — ويقابلها بالانكليزية « The Signal »

أما مؤلف هذه القصة فأديب روسي نابغ ، من السائرين على مذهب « تولستوي » والمتأثرين بأسلوبه وأفكاره . ولد سنة ١٨٥٥ وكانت له في الجيش الروسي خدمات أثرت في أدبه القصصي إذ انتزع من حياة الجيش تلك صوراً جميلة رائعة لقصصه التي كتب ، والقصة التي نقدمها للقراء اليوم تريهم طرفاً من تصويره تلك الحياة . ثم أصيب باضطراب في أعصابه جعله ينقل إلى الناس بعض ما كان يعانيه من ذلك الداء الوبيل في كثير من قصصه التي كتب في تلك الفترة من عمره . وقد مات « كارشين » منتحراً وهو ما يزال في ميعة الشباب سنة ١٨٨٨

أخرى ... لقد ذهبا يبحثان عن عمل فى سكة القطار فى « خاركوف » و « الدون » ولكن الحظ لم يواتهما أيما ذهبا ؛ فاضطرت زوجه إلى أن تكون خادماً ، وظل هو يكمل رحلته فى التفتيش عن عمل له ... وإنه لجاد فى سفره إذ صادف مدير إحدى محطات القطار الصغيرة ؛ فتفرس فيه ، وأخذ يثبته وينفيه كأن له به سابق معرفة حتى ذكر من يكون هذا الرجل ... إنه من ضباط الفرقة التى كان فيها سيده !

— ألست « إيفانوف » ؟

— أجل . . أنا هو ياسيدى .

— وكيف جئت إلى هذه المحطة ؟ !

فقص « سيمن » قصته عليه .

— وإلى أين أنت ذاهب الآن ؟

— لست أدرى يامولاي !

— ماذا تعنى : أمجنون أنت فلا تدرى أين تضرب فى الأرض ؟

— هو ما تقول يامولاى ، إذ ليس لدى مأوى ألجأ إليه . وإن على أن أمضى فى التفتيش عن عمل مهما كان نوعه يا صاحب السعادة .

فنظر إليه مدير المحطة لحظة ، وظل ساهماً ، ثم قال له : —

— إسمع ياصديقى ، ابق فى المحطة الآن ؛ أنت متزوج فيما أعتقد فأين زوجك ؟

— أجل ، هذا صحيح ؛ سيدى أنا متزوج ، وزوجى فى « كرسك » فى خدمة تاجر هناك .

— حسن ، فاكتب إليها تستقدمها لتوافيك إلى هنا ، وسأحصل لها على بطاقة سفر مجانية . . إن أحد حراس « الخط » سيخلى مكانه ، وسأكلم رئيس الشعبة فى شأنك .

— أنا شاكر جميل صنعك ، مولاى !

... وكذلك ظل « سيمن » فى المحطة يساعد المكانين باعداد طعام المدير طوراً ، وبقطع لهم الخشب تارة ، أو يكنس الساحة والبلاط أحياناً حتى قدمت — بعد أسبوعين — زوجه فخرج لاستقبالها ، وحمل لها أمتعتها فى عربة يد صغيرة إلى مقرها الجديد .

كانت داره هى مقر حراسته الخط وملاحظته القطار ؛ وكانت داراً جديدة البناء دافئة ، هذا إلى أن باستطاعته أن يحتطب مايشاء ، وأن يزرع أرضاً صغيرة حول داره ... وإنه ليفكر الآن فى شراء بقرة وحصان ليستفيد منهما فى تلك الأرض

وأُعطِىَ « سيمن » كل ما يحتاج إليه فى أداء وظيفته : علماً أخضر وآخر أحمر ، ومصباح نفط ، وبوقاً ومطرقة ومفتاحاً يقوى به مسامير الخط ، ومكنسة وكلاّباً ، كما أعطى كتابين صغيرين فى أحدهما قوانين استعمال العلمين وفى الآخر مواعيد وصول القطار ... وما كان « سيمن » يستطيع أن ينام فى بادئ الأمر ليلا لأن استظهار مواعيد القطار كان موضع اهتمامه وشغله ... فلو أن قطاراً سيمر بعد ساعتين كان ينهض له « سيمن » فيصلح من الخط شيئاً ، ولو بدقات بسيطة عليه من مطرقته ، ثم يجلس على مصطبة حيال داره يرقب مقدم القطار ، فان استعصى عليه ذلك بالسماع تحسسه باهتزاز الأرض أو ارتجاف خطوط السكة . وحفظ قواعد استعمال العلمين عن ظهر قلب بعد صعوبة قاساها

كان الفصل فصل الصيف ، والعمل فى الصيف

يسير ، فليس ثمة ثلج يقتضيه تنظيفه . . . بل كل ما هناك بضعة قطر تدرج على ذلك الخط مرات قليلة في اليوم ؛ فكان سيمن يخطر فى مصامته[1] المسؤول عن حراستها مرتين فى اليوم : يربط هذا الخط ، ويقوى ذلك المسمار ، ويعدّل تلك الصابورة ويلاحظ أقنية الماء ، ثم يعود إلى داره ليشتغل فى زراعة أرضه ؛ ولكن أعماله فى الدار كان يعطلها شئ واحد هو طلب « الاذن » من ملاحظ الطريق الذى يرفع الأمر بدوره إلى « رئيس الشعبة » وقبل أن يجاب الطلب يكون قد فات الأوان ! وكان ذلك سبب تذمر « سيمن » وزوجه المستمر

مضى على مقام « سيمن » شهران فبدأ يتعرف إلى جيرانه ويتخذ له منهم الأصدقاء ... كان أحدهم شيخاً طاعناً فى السن ، تفيض الألسن بشائمة الاستغناء عنه إذ لم يكن يستطيع الخروج من داره وكانت تعينه على أداء واجبه زوجه فهى التى تلاحظ الخط وتقوم بذلك مقامه ، وهى التى تؤدى ما كان زوجها مسؤولا عنه من واجبات ... وكان الآخر شابا فى مقتبل العمر ، لفيه « سيمن » أول ما لقيه على خط السكة الحديدية حين جمعتهما المهنة المشتركة فألقى «سيمن» على الشاب نظرة ثم انحنى له وحياه فرد الآخر تحيته عليه ثم استدار يخب السير فى طريقه

والتقت زوجاهما بعد ذلك فكانت «إرينا سيمن» تبتدر صاحبتها بالتحية، وكانت الأخرى ترد عليها ثم تنصرف إلى ما كانت فيه ... وقد صادف «سيمن» زوج صاحبه مرة فسألها قائلا :

— ما بال زوجك يا سيدتى طويل السكوت ، لا يتكلم إلا لماما ؟

فنظرت إليه الشابة بادئ الأمر ثم أجابته قائلة :

— وبماذا تريده أن يتحدث إليك ؟ إن لكل امرئ شغله الشاغل ... هلا انصرفت إلى ما أنت فيه محروساً ؟

ولكن ما أن تمضي على ذلك شهر أو لواذ شهر حتى عرفا جملة من الأصدقاء هناك ... فكان «سيمن» إذا ضمته على الرصيف جلسة و«فاسيلى» تبادل وإياه الحديث عن سير حياتيهما التى يحيان وأزجى فراغه وصاحبه بالتدخين ، وكان «فاسيلى» ساكتاً أغلب وقته يستمع لأحاديث « سيمن » تارة عن قريته التى نشأ فيها ، وتارة عن أخبار الحملة التى شهد ، ثم تنتهى الجلسة بأن يختم « سيمن » كلامه قائلا :

— إنها ليست بالمتاعب القليلة تلك التى قاسيتها طوال حياتى ... إن الله لم يجعلنى ذا حظ سعيد ، ومهما يكن من شىء فانه قسم لى هذا يا أخى ... ثم ينظف « فاسيلى » غليونه من الرماد بدقة على القضبان الحديدية وينهض وهو يقول :

— كلا إنها ليست « قسمة » المرء التى تجلب له « التعاسة » إنما هم « الناس! » فليس مثل الناس وحوش ! إن الذئاب لا تأكل الذئاب ، ولكن الانسان يفترس أخاه الانسان وهو على قيد الحياة !

— كلا يا صديقى فالذئاب يأكل بعضها بعضاً ، ليس إلى إنكارك هذا من سبيل !

— هكذا خطرت لى الكلمة فقلتها ... إنهم جميعاً سواء ، فليس ثمة مخلوق أقسى من مخلوق ! ولكن لو لا أن كان فى الانسان «الشر» و«الطمع» لاستطاع أن يعيش ... إن كل فرد يتحين بك

(١) المصامة : الحدود المعينة التى لا يجوز تخطيها إلى غيرها

الفرصة لينقض عليك وأنت ما تزال حيًّا فيختطف لقمتك من فمك إليه !

— لست أدرى ، يا أخى ، ربما كان الأمر على ما تقول ... ولكن إذا كان هـذا حقًّا فتلك « قسمة الله ! »

— فإن صح ما ذهبت إليه فليس لدى أحدنا ما يقول للآخر ... إنا ياهذا لو عزونا كل ظلامة إلى الله وا كتفينا بالصبر على مضض العيش فما نحن بشر ، بل أنعام ... هذا ما أرى !

ثم يستدير ليمضى دون أن يسلم على رفيقه ، فينادیه « سيمن » ويعتب عليه لهذا التهجم ، ولكن « ڤاسيلى » يجد فى السير إلى أن تنقطع عن العين رؤيته فى المنعطف فيعود « سيمن » إلى زوجه ويخبرها بأن جارها هذا لايعدو كونه وحشاً فظاً !!

على أن هذا الحديث لم يكن ليجر إلى المشادة فسرعان مايعود الاثنان إلى صفائهما ويجلسان حيث كانا من قبل ويبحثان ما كانا يبحثان فيه فترى « ڤاسيلى » يقول :

— حسن يا أخى ، فلولا هؤلاء الناس ما كنا نأوي إلي هذه المساكن التى تنجزفيها واجباتنا ...

— وما اعتراضك على هذه الدور ؟ إنها ليست بالرديئة ... إنك تستطيع أن تعيش فيها

— نعم تستطيع أن تعيش فيها ، نعم ! ذلك رأيك أنت أيها الشيخ ... الغر ! ولكن خبرنى بربك عن نوع هذه المعيشة التى يعيش الفقراء سواء فى دور الحراسة هذه أو في أى ملجأ آخر ... حدثنى عنها كيف تكون ؟ إن « مصاصى الدماء » سيأكلونك وأنت ما تزال على قيد الحياة ! سيستنفدون آخر قطرة من دمك فاذا لم تعد صالحاً لهم رموك كما ترمى فضلات الذبائح للخنازير ! ألا تحدثنى عن أجرك ؟ إنك لتتناول اثنى عشر روبلاً فيما أظن . وأما أنا فأزيد عليك روبل ونصف روبل فكيف كان هذا ؟ فى حين أن الشركة قد فرضت للواحد منا خمسة عشر روبلا إلى جرايات للوقود والاضاءة ؟ كيف جعلت اثنى عشر روبلا لك وثلاثة عشر روبلاً ونصف روبل لي ؟ من رتب هذا المرتب ؟ أجبنى على هذا ثم قل إن الواحد منا يستطيع أن يعيش ! إنك تفهم هذا على أنه حساب روبلات زهيدة ! ولكن الأمر ليس كما تظن ... فلقد كنت بالمحطة فى الشهر الماضى حين مر « المدير » تحفه ضروب التجلة والاحترام ، وكان راكباً سيارة خاصة فنزل منها ووقف على الرصيف ... دعنى ... لن أبقى هنا أبداً سأهيم على وجهى :..

— إلى أين يا أخى « ستيفانيش » ؟ إن لك هنا سكناً يقيك البرد ، وإن لك قطعة أرض وزوجاً تقوم بخدمتك !

— آه ! قطعة أرض ... أنك لا تبصر غيرها ! ولكن ما الذى أفدته منها ؟ إنها خلاء حتى من الشوك ! لقد زرعتها في الربيع الماضى بشىء من الكرنب أفتدرى ماذا قال اللاحظ ؟ لقد جاء سكران بعربد :

— أى شىء فعلت ؟ هل استأذنت أحداً ؟ هل سمح لك به ؟ لا يجوز أن يبقي هذا ، ولا أثر منه بسيط ! أتدرى أنه كان يعنى نفسه أن أنفحه بضعة روبلات ... ثلاثة جميلة ... لا بأس بها !

ثم قال « ڤاسيلى » بعد أن دخن فى غليونه :

— ولولا أن تريثت ، وتحملت ، لكنت بطشت به ...

— عجباً يا أخى ... اسمح لى أن أقول إنك رجل حديد الطبع ، سريع التأثر !

— كلا، لست كما تصف ، بل إنى أتأمل الحقيقة ثم أجهر بها.. وعلى كل فسينال الملاحظ جزاءه الذي يستحق ... سأرفع شكواى إلى الرئيس ... ثم كان الأمر كما قال .. إذ رفع شكواه إلى الرئيس .

... وجاء « الرئيس » لتفتيش الخط ، فقد كان من المنتظر أن يطرأ عليهم أحد من « بطرسبورج » بعد ثلاثة أيام ، ففحص الخط لاكمال نواقصه قبل وصول ذلك الطارئ .. لقد سويت الطريق ، وأصلحت المسامير ، والعوارض واختبرت العقد بالمطارق وصبغت الأعمدة ، ونثرت الرمال الصفراء فى مفارق الطرق ... وبعثت الحارسة العجوز بزوجها المحرم ذلك الأسبوع ليجتث الأعشاب !

أما « سيمن » فقد أجهد نفسه طوال ذلك الأسبوع حتى استوى له كل شىء على ما يرام ... لقد رفا ثوبه وغسله ، ولمع طاولته المعدنية « بغبار الطابوق » حتى بدت صقيلة متوهجة ، وكذلك كان أمر « فاسيلى » الذى جد فى عمله أى جد !

... وصل « الرئيس » إلى المحطة فى مركبته الخاصة ... واندفع إلى مكان « سيمن » ، فقام إليه هذا فحياه تحية عسكرية !! . لقد كان كل شىء على ما يرام

— كم مضى عليك منذ مجيئك ؟

— كان مجيئى يا مولاى في مايو الماضى

— حسن ... أشكرك ... من هو صاحب الرقم ١٦٤ ؟

فأجابه الملاحظ الذي كان بصحبته :

— « فاسيلي سبيريدونوف »

— سبيريدونوف.. سبيريدونوف .. آه ، أهو ذلك الفتى الذى عوقب فى العام المنصرم ؟

— نعم .. إنه هو

— حسن سنرى ، فلنمض ..

فسحب الرجال العربة وبدأت تسير ..

نظر « سيمن » إليهم لحظة ثم قال :

— لا بد أن يكون لهم شأن مع جارنا

وبعد ساعتين — انصرف فيهما « سيمن » إلى عمله — أبصر شخصاً قادماً من منعطف الطريق سائراً حذاء الخط ، وكأنه يحمل شيئاً أبيض فوق رأسه .. وتطلع « سيمن » وأطال نظره .. فاذا به يرى « فاسيلى » ، لقد كان ممسكا بعصا فى يده ، وعلى عاتقه حزمة بيضاء ، وكان وجهه ملفعاً بمنديل

— إلى أين أيها الجار ؟

فاقترب « فاسيلى » ، وكان منظره غريباً ، ووجهه مثيراً للدهشة ، بعينيه الواسعتين الجاحظتين وحاول أن يتكلم فانفجر قائلاً :

— إنى ذاهب إلى « موسكو » إلى حيث « اللجنة »

— إلى اللجنة ؟ أكذلك ؟ .. لترفع شكواك على ما أظن ؟ ! لا يا أخى .. تناسَ ذلك .. أسقطه من بالك

— لا ... لن يكون ذلك ! يستحيل . انظر لقد صفعنى على وجهى فأدماه ! لن أنسى هذا

ما حييت ولن أدع الأمر يمر بسلام

وأخذ « سيمن » ذراع صديقه بين يديه ثم قال :

— لا بأس يا أخى ... لا بأس ؛ إسمح لى أن أقول لك إنك لن تصلح شيئاً مطلقاً

— لن أُصْلِحَ شيئاً ، نعم أنا عالم بهذا ، لقد صح قولك عن « قسمة الله » ! لن أصلح شيئاً من أجل نفسى .. ولكن علينا أن نتمسك « بالحق » أيها الصديق

— أرجوك حدثنى كيف تم هذا ؟

— اسمع ... لقد فَحَصَ كلٌّ شىء ، نزل من المركبة ودخل الدار وكنت عارفاً بعنايته بالتدقيق والفحص فهيّأت كل شيء ، وأعددته إعداداً حسناً ، وجعلته على خير ما يكون .. وهم بالخروج لولا أنى رفعت إليه ظلامتى ، فصرخ قائلاً :

— هذا تفتيش إدارى ، لا يجوز لك عرض شكواك الحقيرة هذه عليه ، هذا إلى أن هذه الأرض التى زرعت أرضٌ أميرية لاحق لك بأن تملأها قذارة بكرنبك ذاك ... ولم أستطع أن أقول شيئاً أجابهه به بعد هذا ... ثم ... ثم أهوى على وجهى بضربته التى ترى آثارها ! ولبثتُ فى مكانى كأن ذلك لى هو حُكمُ النصفة ، وقرار « العدل » ... وانصرفوا عنى ذاهبين ! وغسلت وجهى وفكرت فيما عساني أقوله لزوجى !... وانصرف « ڤاسيلى » وهو يقول :

— أترانى سأدرك العدل الذى أريد ؟!

— وستذهب ماشياً ؟

— سأسعى أن أسافر فى قطار البضاعة ، وسأكون فى موسكو غداً

ثم افترقا ...

... طال ارتقاب زوج « ڤاسيلى » عودة زوجها. إنها الآن هى التى تقوم بأعماله المسؤول عنها ليلَ نهار ! حتى مرّ فى اليوم الثالث مفتش من مفتشى القطار وكانت المحطة آنئذاك مزدحمة ، فهنا قاطرة وهناك عربة شحن ، وبقربها عربتان أخريان من عربات الدرجة الأولى . وقد شغل كلُّ هذا الزحام المفتشَ عن أن يتحرى أو يفتش ... غير أن « ڤاسيلى » مايزال غائباً الآن ... وفى اليوم الرابع اتى « سيمن » زوجة جاره فى بعض الطريق — وكانت محمرة العينين ، بادية التعب — فسألها عن زوجها : هل عاد ؟ فأشارت إليه بالنفى ولم تحر جواباً وانصرفت إلى سبيلها

* * *

كان سيمن حذق فى صغره كيفية صنع المزامير من غصون الصفصاف فكان يقتطع لباب الشجر الطريّ ويجوّفها ويثقبها من أماكن خاصة ، ثم يبرى لها « مكان الفم » فاذا تلك العصاة قد استوت له آلة يستطيع أن يوقع عليها ما شاء من ضروب الأنغام ! وكان يَسْتَغِل أوقات فراغه فى صنع أمثال هذه المزامير ويبعث بها إلى القرية مع حارس من حراس قطار الشحن — له به معرفة سابقة — ويقبض « كوبكين » عن كل واحد من تلك المزامير

وكان قد مضى على مرور « المفتش » ثلاثة أيام حين ترك « سيمن » مهمة التلويح لقطار الساعة السادسة إلى زوجه ومضى إلى الغابة يقتطع بعض أخشاب الصفصاف — بعد أن خبر الخط بنفسه ليتأكد من سلامته

وكانت خيرة عيدان الصفصاف تنبت حول

مستنقع فى جوف الغابة ... فقصد « سيمن » إلى ذلك المكان واحتطب منه كفايته ثم تأهب للرجوع

كانت الشمس قد تضيفت للغروب ، وكان يخيم على المكان سكون رهيب لا يسمع من خلاله غير زفزفة الريح ، وحفيف الغصون ، وخشخشة (١) الأوراق الجافة المنتثرة على أرض الغابة . . . وسار « سيمن » حتى قارب خط سكة الحديد فخيل إليه أنه يسمع طرقاً على معدن، فخب السيرليرى ما هذا. إن الخط فى هذه المنطقة لا يحتاج إلى إصلاح فما تعليل هذا الطرق ؟

وخرج من الغابة فرأى على « سدة القطار » رجلا قد جلس القرفصاء وكأنه مشغول بشىء بين يديه ، فدنا منه « سيمن » فى حذر ، وكان يظن أنه رجل جاء لسرقة بعض صوابير الخط ! ثم أنعم فيه النظر — وكان الشخص قد نهض — فرأى مُخيلاً أمرٌ من تحت الخط الحديدى لينحرف به عن اتجاهه . . لقد حاول « سيمن » أن يصرخ به ، ولكن كيف ؟ إنه . . « فاسيلى » فانقض عليه بسرعة عجيبة ، غير أن « فاسيلى » كان قد طفر إلى الجانب الثانى من السد ، حاملا إزميله معه

— فاسيلى ستيفانيش — أيها الأخ — أيها الصديق . عد إلى . هات أزميلك لنعيد الخط إلى ما كان . لن يعلم بهذا أحد ؛ عد . سارع وأنقذ « روحك » من اقتراف الاثم .

ولكن فاسيلى لم يعد بل أوغل فى الغابة هرباً !

وقف « سيمن » حيال الخط المفصومة عراه — تاركاً عيدانه تنتثر — ... إن القطار الآتى قطار ركاب لاشحن ! وليس فى استطاعته إيقافه إذ ليس لديه علم الخطر الأحمر ، وليس فى مقدوره أن يعيد الخط بيديه المجردتين إلى وضعه السابق . وإذاً فعليه أن يركض إلى مكان قريب . إلى داره ليحضر الأدوات . ومنك ياإلهى النجدة . .

وانطلق « سيمن » نحو داره بسرعة فائقة وابتعد عن الغابة . غير أنه ما يزال بينه وبين داره نحو مئتى ياردة !

إنها الساعة السادسة الآن ، وسيكون القطار هنا بعد دقيقتين . أيها الاله الكريم أنقذ الأرواح البريئة . لقد ارتسم أمام ناظرى « سيمن » المنظر بكامله ، فهذه القاطرة تتقدم عجلاتها الأمامية إلى مكان الخطر ثم تتبعها العجلات الأخرى ! يا للهول ! هنالك موضع الخطر ومن تحته انحدار خمس وعشرين قدماً — ارتفاع السد ! تلكم جموع الأطفال والنساء الحاشدة فى عربات الدرجة الثالثة وهم جميعاً ساهون لا يتوقعون حدوث الكارثة ولا يدرون عنها شيئاً كلا ... ليس فى الوقت سعة للركض إلى الدار ، فليعد أدراجه إذن ...

استدار « سيمن » راكضاً من حيث أتى وهو لا يدرى ما يفعل ، مضاعفاً سرعته فى الركض ، غير مهتد إلى حل ، جاهلا نهاية هذه المشكلة !

عاد إلى حيث كان أصاب الخط التخريب ، إن عصيه كانت مكومة هناك ، فوقف لحظة ، ثم أخذ إحداها ، وابتعد راكضاً — لقد وصل إلى أذنيه صفير القطار البعيد ، وها هى ذى القضبان بدأت تهتز وكانت قواه قد خارت ولم يعد باستطاعته أن يواصل الركض . إن بينه وبين مواطن الخطر الآن قرابة مائتى ياردة ، لقد خيل له أنه توصل إلى حل معقول

(١) صوت حركة القرطاس والثوب الجديد أو الدرع أو ما أشبه ذلك، وهي من الكلمات الدارجة التى تستعملها (العامة) فى العراق بهذا المعنى .

فرفع قبعته واستخرج منها منديلا قطنياً ثم سحب سكينه وحز ذراعه قائلا :

— بارکنی یا إلهی !

فتدفق الدم غزيراً قانياً حاراً ، فبلل منه منديله ثم نشره وعلقه على العصا الصغيرة ، ثم أمسك بعلمه الأحمر هذا ينتظر القطار ، ووقف هناك يلوح بعلمه . إنه ليتراءى له أن سائق القطار لم يره فهو يمضي مسرعاً حتى يقارب الوضع المشؤوم فيتردى

كان دمه ما يزال يتدفق بغزارة ، فألصق جرحه بجسده ضاغطاً عليه ليوقف تدفق الدم ، ولكن ذلك لم يفده . لقد كان جرحاً رغيباً [1] .. إنه ليشعر بالدوار يستولي عليه ، والذباب يتراقص أمام عينيه . ثم عم الظلام فهو لا يرى شيئاً ، ولكنه يسمع مثل دقات الجرس . إن شيئاً واحداً يشغله : خوف ترنحه قبل مرور القطار ، فلا يراه السائق أو يشعر به ! أدركني يا إلهي برحمتك ... وأظلمت عيناه ، وتبلد ذهنه ، فهو لا يعي شيئاً مما حوله ... ثم سقط العلم من يده ! غير أن علمه المدمى لم يسقط ... بل أخذته منه يد شخص (!) لا يدري من هو ، وظلت تلوح به إلى موعد مرور القطار !

رأى هذا المشهد سائق القطار فأوقف قاطرته فنزل الركاب يستطلعون طلع الأمر ، متجمهرين ليروا ... ماذا ؟ رجل فاقد وعيه قد غطاه الدم ، وبقربه آخر ممسكا بعلم أحمر مدمى مربوط بعصا صغيرة ...

ونظر « فاسيلي » إلى ما حوله ، ثم لوى رأسه وهو يقول :

« اقبضوا علي ... فقد كنت سبب ما ترون ! »

« بغداد » فخري شهاب السعيدي

(١) الجرح الرغيب العميق

بيت الله الحرام مهدت السبيل إليه

﴿ شركة مصر للملاحة البحرية ﴾

ببواخرها الفاخرة و فنادقها الفخمة

ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا

جميع الاستعلامات من شركة مصر الملاحة البحرية

رقم ١٥١ شارع عماد الدين — القاهرة